

صلاح الدين والتراث المصادر

مدخل إلى الدولة الأيوبية

د. ابراهيم بيضون

كانت الخلافة قد خرج منها المشروع السياسي الذي أصبح أمر ما تبقى منه، من شأن قوى الأمر الواقع، أو المتغلبين عليها إذا أردنا استخدام عبارة الفقهاء المألوفة، أولئك الذين صرفهم موضوع السلطة في ذاته، عن القيام بواجباتها والالتزام بالحدّ الأقل من شروطها الأساسية، وما هو الا قرن، فلم يعد ما يمكن أن يسمى بالدولة العباسية ... كانت ثمة خلافة عادية فقط، ظلت تحمل هذا الاسم، ربما لصلتها ببيت الرسول الذي استمدت منه عنصر الاستمرار كهيئة مرجعية كانت ما تزال دول المركز التي اسقطت دولتها، بحاجة إلى التطلّل بها وكذلك دول الاطراف التي فاق بعضها الأولى نفوذا وطموحا وأهمية، وإذا أردنا المقارنة فإن الدولة الطولونية على سبيل المثال - التي نشأت مبكرة في مصر حين أقطعها الخليفة لقائدة التركي (بايكباك)، والذي أناب عنه في حكمها تركياً آخر، هو أحمد بن طولون، كانت من دون شك، بفضل طموح الطولوني ورضاً معه أكثر قوة من دولة الأتراك في مركز الخلافة.

ولكن الدولة الطولونية التي بلغت بها الجراة وقتاً إلى حدّ الانفصال عن سلطة المركز، لم تنطو على مشروع سياسي ما، شأن النماذج العديدة التي قامت على حساب الخلافة، حتى أن دولة بني بوية الشيعة التي امسكت بزمام الأمر في المركز لم تعبّر عن الخط الفكري للتيار الذي تنتمي إليه أو تجسد بالتالي معاناته وتجربته النضالية الطويلة، ولعل اثنين من هذه الدول تجاوزت كلتاها هذه النماذج احدهما بالاختيار، وهي الدولة الفاطمية والتي نشأت على طرف الخلافة وراعت مشروعا بديلا على التراث الشيعي والثانية، بالضرورة، وهي دولة السلاجقة التي نشأت طرفية، قبل أن تجتاح المركز وتحمل هويته، ومن ثمّ تتبنى فكره، وإن بالقليل من التمايز عن الأتراك وبني بويه، وكان ما يجمع بين الدولتين الفاطمية والسلاجقية على الاختلاف الكبير في الرؤية الفكرية والسياسية، أن كلتاها أعادت احياء حركة الجهاد التي انطفأت منذ حملة المعتمد الشهيرة إلى عمورية ... ولكن صداها كان كبيرا واسعا، يوازي حجم الانكفاء العسكري أمام البزنطيين، فقد كان الجنود الأتراك الذين استعان بهم الخليفة العباسي، مادة النصر، ولكنهم حوّلوا وجهة السيوف إلى الداخل، ولم تكن لهم جولة بعدها ضد

الدولة البيزنطية التي استراحت همومها الاسلامية، ووجدت سبيلا، برغم الشيوخوخة إلى الخروج من الانطواء، وتحويل خطتها من الدفاع إلى الهجوم.

لم يقتنع السلاجقة بأن يكون لهم مثل خط أسلافهم، في الانزواء وراء الخلافة التي خبا بريقها وتداعت هيبتها، وهم الذين نموا مظللتها في الأساس والاسلام الذي لم يعد حديث العهد في نفوسهم، كان أكثر حضورا فيهم، بالتالي أكثر حماسة للتوسع تحت رايته، من غير أن تجذبهم عاصمة الخلافة للقامة فيها شأن المتغلبين من قبل فقد بقي حكمهم في العراق صورة بلا معنى كما يقول مؤرخ من القرن الثالث عشر الميلادي⁽¹⁾ تاركين الحكم فيه وما حوله للأناطقة⁽²⁾.

وإذا كان الشرق بتعقيداته، ما استهوى السلاطين السلاجقة فانهم لم يكفوا عن التطلع نحو الغرب واحياء الصراع مع البيزنطيين، ذلك الذي مضى زمن على ركوده فقد تصدى السلاجقة بشجاعة لهذا الدور وبالكثير من المغامرة، مما جعل صورتهم تكتسب معذاها الذي كان غائبا عن مركز الخلافة، فكانت معركة ملانكرد (463 هـ) التي احرز فيها السلطان الب أرسلان انتصاره الباهر على الامبراطور البيزنطي (ديوجينيس رومانوس)، حيث وقع الأخير أسيرا في قبضة السلطان، وهي معركة ترتبت عليها أحداث كبيرة تعدت انعكاساتها على الدولة البيزنطية، إلى الغرب الأوروبي الذي تدرع بها لاثارت الغرائز العدائية المترسبة، ضد الشرق الاسلامي، ممهدا ذلك للموجات الصليبية المعروفة.

ومن هنا تكتسب (ملانكرد) أهميتها الكبرى، بعد انكفاء طويل للقوى الاسلامية، وانحرافها عن الجهاد إلى الصراع الداخلي، مما شجع البيزنطيين على التوغل في بلدان الخلافة حتى بيت المقدس، وكان الفاطميون قد سبقوا السلاجقة إلى هذا الدور بناء على بواعث ومعطيات، تتعدى السلطة إلى الخلافة بصورتها المتكاملة، وقد وجد الخليفة الفاطمي الرابع (المعز لدين الله) في احياء الجهاد ضد البيزنطيين، بعد تقاعس، الخلافة العباسية عن القيام به، السبيل إلى دفع مشروعة، مختصرا هدفه في السيطرة على مصر، بالدفاع عن الشام وحماية ثغورها من الخطر البيزنطي⁽³⁾، وجسد هذا المعنى فائده جوهر، في بيان أعلنه بعد دخوله القسطنطينية، انه جاء لانتقاد مصر من ظلم الولاة والحكام (وإقامة دولة منافسة للعباسيين، وتقف في وجه مطامع الروم وسواهم)⁽⁴⁾.

وهكذا فان احياء الجهاد ضد القوى التقليدية المعادية للشرق الاسلامي، ممثلة بالبيزنطيين، كان رائدها الفاطميون الذين سارعوا بعد عام (359 هـ-) على سقوط مصر إلى التوغل في

(1) صدر الدين الحسيني، زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) ص 316.

(2) المصدر نفسه.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 4، ص 72.

(4) حسن ابراهيم حسن وطه شرف، المعز لدين الله، ص 85.

الشام، تنفيذاً للمشروع الذي اختتم في عهد المعزّ، ولكن قيام دولة السلاجقة وهي على مذهب الخلافة العباسية، وقضاهما على نفوذ بني بوية الذين تجاهلوا المشروع الفاطمي، ورفضوا الانضواء فيه، ممال حال دون التنسيق بين القوتين الشيعيتين، وهما على اختلاف في الرؤية والمصلحة وأدى إلى انكفاء هذا المشروع وتعثره في الشام التي مالت في معظمها الخلافة العباسية وتعاظفت مع السلاجقة الممسكين بزمام الأمر فيها.

وكان فشل الفاطميين في الشام ضربة لمشروعهم الذي تلاشى أو كاد أمام ضغط القرامطة وثورات القبائل الغربية، وأقفا بهم إلى جنوبها، مما انعكس على دولتهم التي أصبح القرار حينذاك فيها لوزراء من أصل أرمني، لم يكن بين هواجسهم محل لمثل ذلك المشروع أما اليقظة التي كان سببها السلاجقة، ربما عن غير تخطيط منهم، فكانت مجرد مغامرة جازف بركوبها السلطان الشجاع ألب ارسلان، الذي سرعان ما عاد إلى بلاده بعد تحقيق النصر في (ملانكرد) حيث صرفه الاهتمام بمشروعه الشرقي الهادف إلى فتح العين⁽⁵⁾، عن متابعة الدور السلجوقي في مواجهة التغيرات (العربية) التي كانت أحد أسبابها معركته المظفرة.

ولم يمر عامان حتى توفي ألب ارسلان، تاركا السلطنة موصيا لابنه ملكشاه وموصيا بنصيب منها لأخيه (قارود)، مما سيؤدي إلى خلافات بين أبناء الأسرة الحاكمة، وإلى اضطرابات في أرجائها تركت شروخا كبيرا في جسم السلطنة وعلى الرغم من هزيمة عم السلطان المنافس لملكشاه، وما بذله الوزير نظام الملك من جهود للبقاء على وحدة الدولة السلجوقية، فإن هذه الأخيرة لم تعد في منأى من الانقسام الذي هبّت رياحه لتصيب علاقة السلطان بوزيره، وهو أول الأناكية كما لقبه ملكشاه⁽⁶⁾ بمثل ما كان السلاجقة أوائل السلاطين الذين حملوا هذا اللقب ممن تولّوا الأمر في ظل الدولة العباسية وبناء على هذا الواقع، تراجعت الدولة السلجوقية بعد ملكشاه، وتحولت «اليقظة» التي انبعثت، ربما بالمصادفة في عهد السلطان السابق إلى سبات كانت سببه هذه الدولة أيضا، في ابتعادها عن ساحة المواجهة مع البيزنطيين، تاركة الثغور الشامية، المكشوفة على الخطر إلى ولاتها الذين غرقوا في صراعاتهم الداخلية.

كانت قد اكتملت الخطة الأوروبية لغزو المشرق تحت راية الصليب، وتدافع المتطوعون في الحملة الأولى نحو الشام، وكان شرط الامبراطور البيزنطي حين اقتربوا من عاصمته، أن تكون انطاكية ثمن (العبور إلى بلاد الشام)⁽⁷⁾ ولندع ابن الأثير، وهو مؤرخ متعاطف مع السلاجقة، يتحدث عن المواجهة الأولى لهؤلاء مع الصليبيين في قونية، (فلما وصلوا إليها لقيهم فلج ارسلان في جموعه، ومنعهم فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين وأربعمائة واجتازوا في بلاده وخرجوا إلى انطاكية فحاصروها ... وظهر من شجاعة (صاحبها) ياغي سيان وجودة

(5) البُنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 45.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 110.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، ص 273.

رايه وحزمه ... فهلك أكثر الفرنج ... فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية، راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ... وبذلوا له مالا واقطاعا وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، فلما تقرر بينهم وبين هذا الملعون جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال، فلما زادت عدّتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان، فسأل عن الحال فقل أن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها ملكت ولم يكن من القلعة وإنما كان من ذلك البرج، فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هاربا في ثلاثين غلاما على وجهه فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل⁽⁸⁾.

ولم ينفع (ندم) ياغي سيان فقد سقطت انطاكية، وهي بوابة الشام التي ما كانت تفتح لو أخذ حاكمها الخيار الآخر الذي تخاذل عن اللجوء إليه.

وكان سقوطها قد قلب موازين القوى لمصلحة الصليبيين، فتقدموا بثقة أكبر إلى معرّة النعمان، متعمدين أحداث مجزرة فيها⁽⁹⁾ للنيل من معنويات المدن الأخرى في الشام فانهارت المقاومة وتوغل الصليبيون بسهولة لم تخالجهم من قبل، حتى بيت المقدس التي تصدّت قليلا قبل استسلامها، دون تدخل من أتاكلة السلاجقة، بينما تخاذل الفاطميون بدورهم وجاء تحركهم في غير الوقت المناسب⁽¹⁰⁾.

وهكذا تمت السيطرة الصليبية على الساحل الشامي وبعض تخومه، بما في ذلك الرها وبيت المقدس، وحالت خلافاتهم دون التوغل في جيوبها الداخلية، أكثر مما حالت دونه قوة الأتابكة الذين صرفهم التقاتل على النفوذ، وابتعدت بينهم المسافة بعدها ما بينهم وبين الصليبيين، وربما أكثر في بعض الأحيان، وقد وصف أبو المحاسن الأتابكي، صاحب حلب (رضوان) بأنه (قبيح السيرة ليس في قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين، وكان الفرنج تغاور وتسبي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم)⁽¹¹⁾، وحاولت الخلافة تحت ضغط المسلمين في بغداد، القيام بعمل ما ضد الاغارات الصليبية على مدن الشام داعية السلطان محمد (السلجوقي) إلى الجهاد، فعهد الأخير بهذه المهمة إلى أتابك الموصل (مودود) الذي حاصر الرها ثم انصرف عنها بعد وقت قصير⁽¹²⁾.

ولقد أظهرت مهمة مودود مدى التمزق الذي تعانیه الجبهة الشامية، فقد (أغلق الملك رضوان أبواب حلب، ولم يجتمع بالعساكر السلطانية) حسب رواية ابن الأثير⁽¹³⁾ كما استنكف

(8) المصدر نفسه، ج 10، ص 274-275.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 278.

(10) المصدر نفسه، ج 10، ص 286، 364، 365.

(11) النجوم الزاهرة، ج 5، ص 205.

(12) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 486.

(13) المصدر نفسه، ج 10، ص 417.

من المضي معها (طفتكين) صاحب دمشق الذي ارتاب - فيما تقول الرواية نفسها - بنوايا قائدها، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الفرنج سرا ... وتفترقت العساكر⁽¹⁴⁾ وبذلك فشلت الحملة السلجوقية في تحقيق أهدافها، بعد انفضاض الخلفاء الأتابكة عن مودود فعاد الأخير إلى الموصل وانزوى كل من أتابك حلب ودمشق وراء مخاوفه التي كان مصدرها السلاجقة أكثر من الصليبيين.

ولم يعد ممكنا في ظل العلاقة الواهية بين الأطراف المعول عليها في محاربة الصليبيين، تغيير الصورة التي بدت حينذاك قائمة على الجبهة الشامية حيث تعزز الموقف الصليبي وازداد تماسكا، بينما انصرف الأتابكة الذين شكلوا حالة فريدة في وضعهم السياسي، بالمقارنة مع الكيانات السابقة التابعة للخلافة العباسية، إلى ترسيخ الانقسام الذي لم تنج منه القوة المهيمنة عليها، فانقسمت بدورها إلى ما يسمى بسلاجقة فارس وسلاجقة الروم ولم تلبث دمشق أن عانت في سنة سبع وخمسمائة حصار الصليبيين وهجماتهم المتكررة، فاستنجد صاحبها بأتابك الموصل (مودود) الذي سارع على رأس حملة إلى الشام حين اتفق الاثنان على قتال الملك بدوين فجرت معركة عند طبرية هزم فيها الملك وخلفاؤه من طرابلس واطاكية. وفي الوقت نفسه تحركت قوات فاطمية من عسقلان، مستغلة غياب الملك الصليبي عن بيت المقدس وتقدمت حتى أسوار الأخيرة، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح⁽¹⁵⁾.

كانت عملية عسقلان في الواقع مجرد تحرك فردي، يندرج في خطة أقرب إلى الدفاع منه إلى الهجوم، ذلك أن أي خطة للتنسيق بين الأطراف الإسلامية لم تكن واردة في ذلك الوقت نتيجة للصعوبات الداخلية التي أعاققت قيام جبهة واحدة كان مستحيلا الوصول إليها حتى بين السلاجقة الأتابكة وما حدث في دمشق بعد معركة طبرية أبلغ تعبير عن الوضع المأساوي الذي كان يلف حينذاك جبهة الشام، فقد عرج مودود بعد المعركة على دمشق، تاركا لجنوده فرصة من الراحة، قبل استئناف الغزو في الربيع، حتى إذا قصد المسجد للصلاة في يوم الجمعة، ومعه طفتكين وثب عليه رجل، موجهها إليه طعنات قضت عليه⁽¹⁶⁾، وبذلك انطوت مرحلة قائمة من تاريخ الشام لم تعدم قليلا من ضوء قيام الأتابك مودود في محاولاته التي اتسمت بشيء من الجدية في مقاومة الصليبيين، وقد لا يكون طفتكين بعيدا عن التهمة في مؤامرة اغتياله، وإن ألقى ابن الأثير بأثرها على الباطنية⁽¹⁷⁾ دون أن يجزم بذلك المؤرخ أبو شامة⁽¹⁸⁾ بينما ظل منفذها مجهولا عند أبي المحاسن⁽¹⁹⁾ فما زال أتابك دمشق يساوره القلق من

(14) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 487.

(15) Grousset, Histoire des Croisades, I. p. 274

(16) النجوم الزاهرة، ج 5، ص 207.

(17) الكامل في التاريخ، ج 10، ص 496، 497.

(18) كتاب الروضتين، ج 1، ص 69.

(19) النجوم الزاهرة، ج 5، ص 207.

صاحب الموصل، متوجسا الخطر من نفوذه المتنامي حتى ليصدق فيه قول أحد المؤرخين، بوضعه الحليف (غير الوفي)⁽²⁰⁾ لمودود الذي يسطع نجمه في مواجهة الاحتلال الصليبي.

دائما الموصل ... الظهير الأكثر يقظة من الموقع الأمامي، تختزن رجالات مهيئين لمهمة تقاعست عنها الشام وأصحابها العازفون عن الجهاد ومرة أخرى يخرج من حاضرة الجزيرة، البديل الذي لم يتح لمودود أن يكون، ممهدا لحالة جديدة، أشبه ما تكون بالانتفاضة في تلك المرحلة الصعبة ... كان ذلك عماد الدين زنكي الذي أعطى لدور الأتابكة صورة مضئنة تختلف عن تلك التي راقت ظهورهم في الشام، وكان السلطان محمد شاه السلجوقي، قد أقطع الموصل والجزيرة لآق سنقر البرسقي، وأمره بتقديم عماد الدين زنكي (كما يقول أبو المحاسن)⁽²¹⁾، ويضيف أبو شافة : (سار البرسقي إلى الرها ... فحصرها وقَاتِل من بها من الفرنج والأرمن ... وضائق الحيرة عن العسكر، فرحل إلى سمباط وهي أيضا للفرنج، فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد إل شيختان، فأخرب ما فيه للفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا، ثم عادت العساكر تتحدث عما فعله وعاد البرسقي إلى بغداد، وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود ... وقد علا قدره وظهر اسمه⁽²²⁾).

وما لبثت الموصل أن آلت إلى زنكي بعد وفاة البرسقي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وبدأ صاحبها الجديد على عجلة من أمره لتنفيذ مشروعه الرامي إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاحتلال الصليبي فاستهل عملياته بالسيطرة على جزيرة ابن عمر، ومضى إلى حران ففتحها ثم عبر الفرات إلى حلب وَاخضع حصونا مهمة للصليبيين⁽²³⁾ متوجا عملياته الظافرة بتحرير الرها (539 هـ)⁽²⁴⁾، قبل أن يغتاله أحد رجاله وهو يحاصر قلعة جعبر بعد عامين من سقوط الامارة الصليبية المنيع⁽²⁵⁾.

انطلقت شرارة الجهاد اذن من الموصل، باعثة تلك الیقظة الإسلامية التي أخذت تتسع دائرتها لتعم الشام، مركز المواجهة الفعلية مع الصليبيين وإذا كانت تجلياتها قد بدأت مع الأمير مودود، فإن الأتابك الشجاع اختصر الطريق إلى الهدف ولم يشأ التحالف مع الأتابكة المحيطين كما فعل سلفه، بل اعتمد على قوته الذاتية مخترقا الجبهة الصليبية، ومحدثا فيها ثغرة كبيرة، بقطع تلك الذراع الممتدة إلى داخل الجزيرة، حتى اذا تم له ذلك لم يسقط الأتابكة المتخاذلين من خطته، فكان الالتفاف عليهم من الغرب، ممهدا لتوحيد الشام مع الجزيرة في جبهة واحدة، فقد حاصر دمشق مرتين سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكانت على وشك

(20) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص 256.

(21) النجوم الزاهرة، ج 5، ص 207.

(22) كتاب الروضتين، ج 1، ص 65.

(23) كتاب الروضتين، ج 1، ص 77-78.

(24) المصدر نفسه، ج 1، ص 94 وما بعدها.

(25) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 110-111. أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 1، ص 107.

السقوط حين تراجع عنها، مقابل تخلي صاحبها عن حمص وبعليك⁽²⁶⁾ حيث عيّن على الأخيرة نجم الدين أيوب⁽²⁷⁾، ومعه تبدأ العلاقة بين البيت الزنكي والبيت الأيوبي، والتي استمرت في عهد ابنه وخليفته نور الدين محمود.

تولى نور الدين الحكم بعد مقتل أبيه واتخذ مقرّه في حلب وكان أول ما قام به القضاء على عصيان أهل الرها بتحريض من الملك الصليبي جوسلين⁽²⁸⁾ وتبوأ نور الدين الدور الذي سار فيه سلفه، مع شمولية أوضح في الوعي السياسي، تستوعب الآمال التي انعقدت عليه، ولذلك عمل منذ آلت القيادة إليه على المضي في توحيد الجبهة الإسلامية، مدركاً الأهمية التي تحتلها دمشق في نسيج هذه الوحدة المنشورة ولم يلبث أن دخل الصليبيون في السباق على احتلال المدينة، للتعويض عن الخسارة التي حلت بهم بعد سقوط الرها واخضاع نور الدين لعدد من حصونهم⁽²⁹⁾ فقد روى ابن الأثير أن ملك الألمان قدم (في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج (543 خـ) فلما وصل إلى الشام قصده من بها من الفرنج ... وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه، فساروا معه ونازلوها وحصروها⁽³⁰⁾ ولما اشتد خطرهم استنجد صاحبها بسيف الدين غازي صاحب الموصل الذي اصطحب أخاه نور الدين ونزل معه في حمص، وأرسل إلى الفرنج يتهددهم أن لم يرحلوا عن البلد، فكف الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، حسب المؤرخ نفسه⁽³¹⁾.

واذ رحل الصليبيون عن دمشق أتجه نور الدين إلى بعليك، فأصدا طرابلس، فتخلي له صاحبها عن أحد الحصون مقابل التراجع عن محاصرة المدينة⁽³²⁾، وعاد بعد ذلك إلى حلب ليواجه بعد قليل حملة للصليبيين استهدفت محيطها، فأوقع بهم هزيمة قاسية⁽³³⁾.

وهكذا دأب نور الدين على مقارعة الصليبيين في الشام، مستهدفاً حصونهم واحداً بعد آخر، وهدفه المرحلي حينذاك السيطرة على دمشق، وهي ما انفكت تخالج آمال الصليبيين، ويعملون بدورهم على أن يكون لهم السبق في احتلالها وتبدو أهمية دمشق بالنسبة للطرفين في قول أبي شامة : كان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلمهم وليست له دمشق فكيف إذا أخذها وقوى بها⁽³⁴⁾ وفي تلك الاثناء وبعد أن استولى الصليبيون على عسقلان، طمعوا في دمشق، كما يقول ابن الأثير، فرأى نور الدين أنه

(26) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 73.

(27) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 1، ص 124.

(28) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 114، ابن العديم زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج 2، ص 290.

(29) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 291.

(30) الكامل، ج 11، ص 129.

(31) المصدر نفسه، ج 11، ص 131.

(32) ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 292.

(33) زبدة الحلب، ج 2، ص 292.

(34) كتاب الروضتين، ج 2، ص 237.

في احتلالهم لهذه المدينة (لا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام) حسب المؤرخ نفسه⁽³⁵⁾، ولمّا استنكف صاحبها من الامتثال لدعوته بتسليم دمشق، وفارض الصليبيين للتحالف معهم ضد نور الدين، تقدّم الأخير لاحتلالها الذي ساعدت عليه ثورة قامت في المدينة⁽³⁶⁾ فسبقه إليها قائده الأيوبي أسد الدين شيركوه، الذي كانت له برأي أبي شامة اليد الطولي في فتحها⁽³⁷⁾.

وهكذا برز حضور الأيوبيين في المشروع الزنكي، بعد اقطاع أسد الدين الرحبة⁽³⁸⁾ مكافأة له على دوره في فتح الحاضرة الشامية، كما ولى أخوه نجم الدين على بعلبك⁽³⁹⁾ وصلاح الدين ابن الأخير على الديوان في دمشق⁽⁴⁰⁾، وبذلك أصبح لبني أيوب الشأن الكبير في دولة نور الدين، فسطع نجمهم في الإدارة والجيش، واعتمد عليهم الأخير في المهمات الصعبة، وفيما أخلص الأول له حتى النهاية، وشاب الغموض موقف الثاني، ولكن دون الارتياح فيه، وجد الثالث نفسه على مفترق، ولم يشأ بعد الوصول إليه، أن يهمل الفرصة التي سنحت له، فتربص بها، وأخذ في تأسيس (ملك) على تراث سيدة وفي سياق مشروعة، الذي ربما فقد بعض وجهه معه، فمال به إلى شيء من المساومة، لم تكن من اسلوب نور الدين ونهجه أو من طبيعة المرحلة، التي انعكست عليها شخصية الأخير بحزمه وصدقته في الجهاد.

كانت مخاوف الصليبيين من استيلاء نور الدين على دمشق في محلها، من احتكاكهم بالزنكيين في الجزيرة، واصطدامهم بالمشروع الذي تبلور بعد سقوط الرها، متجاوزة أبعاده الشام إلى مصر تنفيذاً للمرحلة الثانية في خطة نور الدين، الهادفة إلى استعادة بيت المقدس وإخراج الصليبيين من المنطقة، وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت تعاني (الأم الموت البطيء) كما يقوله مؤرخ معاصر⁽⁴¹⁾ بعد أن تخصصت بها رياح الانقسام واضطربت أحوالها الاقتصادية، وزالت هيبة الخلافة فيها، فيما الوزارة يتوارثها الأرمن واحداً بعد آخر، دون أن تكون لأي منهم سياسة خارجية واضحة إزاء المتغيرات من حولهم، ولقد تنبه الصليبيون لخطة نور الدين، فدخلوا مرة أخرى في السباق معه، حين أشار بعض فرسانهم على ملك القدس (عموري) بغزوها مستغلين ضعف الحكم الفاطمي⁽⁴²⁾.

وإذا سار الملك الصليبي مكرها إلى مصر، كان الانقسام على أشده فيها بين اثنين من رجالات الخليفة الأخير (العاضد) وهما : شاور وضرغام، فقاوم الأخير الحملة الصليبية، بينما سار الأول إلى الشام مستنجدا بنور الدين⁽⁴³⁾، فجاء أسد الدين شيركوه - رجل بني أيوب

(35) الكامل، ج 11، ص 197.

(36) المصدر نفسه، ج 11، ص 198.

(37) فتحت سنة 549، أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص 239.

(38) المكان نفسه.

(39) المصدر نفسه، ج 2، ص 250.

(40) المصدر نفسه، ج 2، ص 251.

(41) سعيد عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص 11.

(42) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 335.

(43) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 238.

ومعه صلاح الدين على رأس حملة إلى مصر، حالت دون سيطرة الصليبيين عليها، ولكنها تراجعت إلى الشام، بعد الاتفاق مع هؤلاء على الانسحاب ولعل نور الدين لم يشأ التسرع في خطته للاستيلاء على مصر التي كان الحكم الفاطمي فيها يعيش أيامه الأخيرة، مؤثرا اكساب عملية شيئا من الشرعية بالنسبة لأهلها، حتى لا يستثير دخوله القسري مشاعرهم وهم على غير مذهبه، وانتظار الفرصة التي حسب لها بدقة، وقد جاءت بالفعل، حين أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن وضع الفرنج (كما يقول ابن الأثير⁽⁴⁴⁾) فاستدعى شيركوه وعهد إليه القيام بحملة ثانية لصد الهجوم الصليبي عن مصر وقد ضمت عددا من كبار قادته، كان بينهم أيضا صلاح الدين الذي قيل انه لم يتحمس هذه المرة للانضواء في الحملة وخرج معها (على كره منه)⁽⁴⁵⁾.

سار شيركوه إلى مصر (564 هـ)، ولما اقترب منها، غادرها الصليبيون منكفئين مرة أخرى على القشل في اتخاذ هذه البلاد قاعدة يتعزز بها نفوذهم في الشام وتحصنه في مواجهة الخطر الزنكي الذي أخذ يقض مضاجعهم فيها. وما لبث شيركوه أن دخل القاهرة فخلع عليه العاضد، (وخرج به أهل مصر)⁽⁴⁶⁾ مما جعل مهمته على جانب من السهولة، لا سيما وأن القائد الأيوبي لم يكن بطبعه يميل إلى الضعف، فساعدته مرونته على كسب ثقة الخليفة وعدم إثارة المشاعر الشعبية، فضلا عن احتواء قيادات ليست واضحة الولاء نحوه ولذلك نهي صلاح الدين من قتل شاور للارتياح بأمره غير أن الأخير صمم على اغتياله، وأرسل برأسه إلى الخليفة⁽⁴⁷⁾ واضعا عمه أمام أمر واقع، واذ يبدو أن صلاح الدين كانت له حساباته المبكرة، بعد السيطرة الزنكية على مصر، من خلال محاولته التقرب ربما بعيدا عن عمه، إلى الخليفة بما يحمله ذلك من تجليات العلاقة مع نور الدين الذي فقد بعد نحو عام قائده المخلص شيركوه، وبات أمام قائد لم يكن قد أثبت بعد صدقية ولاءه للبيت الزنكي، فان صلاح الدين وجد نفسه والحظ إلى جانبه منذ بداية الطريق، أمام فرصة قلما اتاحت لأحد بمثل هذه السهولة محققا من الأهداف الكبيرة، ما لم يجل كثيرها في خاطره من قبل.

يروى ابن الأثير في سياق الحديث عن حملة مصر التي انضم إليها صلاح الدين مستشهدا بالآية الكريمة (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)، أن نور الدين أحب مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه⁽⁴⁸⁾، ولا شك أن غياب شيركوه المفاجيء وضع صلاح الدين أمام خيار لم يكن في حسابه من قبل دافعا به إلى الانتقال من الصف الثالث في القيادة إلى المقدمة، فبادر إلى

(44) الكامل، ج 11، ص 336-337.

(45) المصدر نفسه، ج 11، ص 337.

(46) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 339.

(47) المصدر نفسه، ج 11، ص 338-340.

(48) المصدر نفسه، ج 11، ص 338.

التحرك السريع، والامساك بزمام الأمور على انقاض دولة الفاطميين، بعد أن آلت إليه زعامة الأسرة الأيوبية، ولم يكن أمام نور الدين سوى الموافقة المرحلية على الأقل لما يربط هذه الأسرة من علاقة وثيقة بالبيت الزنكي، فضلا عن الحاجة إليها لمتابعة مهمتها في مصر، واحدا ربما الضمانة في وجود نجم الدين وهو المعروف باخلاصه لهذا البيت إلى جانب ابنه في القاهرة.

علما أن ما حدث من تطورات، جاءت استجابة للموقف الذي فرض بدوره قرارات سريعة أيقظ في نفس نور الدين الشكوك نحو قائده وما يخطط له لمصادرة الانجاز الكبير، باتخاذ خطوات مهمة دون استشارة صاحب الأمر، ولم يكن ما أثار الزنكي أن يبادر صلاح الدين إلى التخلص من العاضد وأجماعه، مستعينا بالفقهاء الذين أفتوه، حسب قول أبي المحاسن⁽⁴⁹⁾، ولكن ما أقلقته، تجاوز القائد الأيوبي له، والاتصال المباشر بالخليفة العباسي، واعلامه بـ (الدعاء له) في القاهرة⁽⁵⁰⁾.

وإذا كان هذا الأمر ما يبتغيه نور الدين، فإن قائده استخدم هذه المسألة لكسب الوقت دون أن يقدم فعلا على إلغاء الخلافة الفاطمية، الأمر الذي سيؤدي إلى تلك الازمة أو (الوحشة) بين الرجلين⁽⁵¹⁾ وستمر سنوات ثلاثة، لم تحسم خلالها (الخطبة)، مسوفاً ذلك صلاح الدين (بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه لميلهم إلى العلويين) حسب رواية ابن الأثير⁽⁵²⁾ ولكن السبب الحقيقي كما أورده المؤرخ نفسه - أنه (صلاح الدين) كان (يكتره قطع الخطبة لهم (أي الفاطميين) ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين، فانه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية بأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه، حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر)⁽⁵³⁾.

وهكذا بدت ملامح الانفصال عن الشام وبدا أن صلاح الدين يتجه إلى الاستقلال بمصر واعتبارها اقطاعا للايوبيين، مقابل ما أدوه من خدمات للبيت الزنكي، شأن الاقطاعات السابقة التي نالها أصحابها نتيجة لذلك في اطار الخلافة العباسية فلم يعد خافيا هذا الأمر على نور الدين، كما أنه بات موضع التداول لدى الأسرة الأيوبية (المحيطة بقائدها في مصر وعلى الرغم من رضوخ صلاح الدين أخيرا، والغائه الخلافة الفاطمية عشية وفاة العاضد)⁽⁵⁴⁾، فإن الوحشة كانت قد بلغت مداها بين الاثنين، ولم يعد ممكنا ترميم العلاقة بينهما وازالة ما يكتره نور الدين

(49) النجوم الزاهرة، ج 5، ص 343.

(50) المكان نفسه.

(51) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 371.

(52) المصدر نفسه، ج 11، ص 368.

(53) المكان نفسه.

(54) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 369.

من حقد على قائده المتمرّد وسيمّر عام على سقوط الخلافة الفاطمية، كان التربص لدى الزنكي، وكذلك الحذر من جانب الأيوبي، العنوانيين البارزين له.

ولعل ما زاد الموقف تعقيدا، محاولة صلاح الدين اقتحام الميدان نفسه الذي تألق فيه الزنكيون، ومنافسة نور الدين في (الجهاد) ضد الصليبيين حين خرج الأول من القاهرة (صفر من سنة سبع وستين وخمسمائة) إلى الشام.

وحاصر حصن الشوبك فاستقرت هذه الخطوة التي لم يستشر فيها نور الدين أيضا، ودفّعه إلى الخروج من دمشق غازيا الصليبيين في هذه الجهات ومرة أخرى يأخذ الحذر بصلاح الدين، فيعود إلى مصر، ممسكا عن الحصار الذي كاد يسفر عن سقوط الحصن، بعد أن قيل له، - حسب روايتي ابن الأثير وأبي المحاسن - (أن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها، وحتى زال الفرنج من الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين وأنت ها هنا فلا بدّ لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك وإن شاء عزلك فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر)⁽⁵⁵⁾.

ولعل صلاح الدين في اعلانه الحرب على الصليبيين، وهم خارج هواجسه الملحة في ذلك الوقت لم يهدف من ورائه سوى احراج نور الدين، بالتحرك في ساحة نفوذه، بما يشبه الحرب الوقائية على قاعدة أن أفضل طريقة للدفاع هي الهجوم متفاديا في خطته مواجهة الخصم بصورة مباشرة، دون أن تكون هذه الخطة واضحة ضد العدو (الصليبيون)، وعلى عكس ذلك، كان ما يزال حريصا على وجود هؤلاء، حاجزا بينه وبين نور الدين، بمثل حرصه السابق على التمهّل في الغاء الخلافة الفاطمية، وفي كلتا الحالتين كان يخدم قضيتة الخاصة التي كانت محورها مصر، متحصنا فيها ومتيقظا لأي خطر، زنكي أو صليبي على السواء.

وكان يجد التسويغ دائما لموقفه أمام نور الدين متذرعا (باختلال البلاد المصرية) واكتشافه مؤامرة يدبرها (العلويون) ضده⁽⁵⁶⁾، ولكن نور الدين وقد تجلّى له مخطط القائد الأيوبي، بما لا يدع مجالا للشك، عزم على وضع حدّ لتمرده، وعلى اخراجه من مصر بالقوة فجمع صلاح الدين أهله، واستشارهم فيما ينبغي أن يتخذ من موقف لمواجهة نور الدين، وكان الصمت الذي عقد الألسن في تلك اللحظات ينبئ عما في نفوسهم من تهيب وقلق، لولا أن خرّقه شاب، هو ابن أخيه⁽⁵⁷⁾ تحمس لركوب المغامرة مع عمه.

(55) ابن الأثير، ج 11، ص 372، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 22.

(56) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 372، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 22.

(57) تقي الدين عمر.

وما لبث الآخرون أن خرجوا من صمتهم أيضا، دون أن تكون ثورة أبيه (نجم الدين) على القوم (وشتهم)، وإيثاره الزنكي على ابنه فيما لو قامت الحرب بين الاثنين⁽⁵⁸⁾ سوى الموقف المعلق للأب، متفاديا قطع الجسور كلها مع أتابك الشام القوى.

فلم يكن نجم الدين أقل حماسة للدفاع عن المنجزات الأيوبية في مصر، ولكنه رأى في السياسة سلاحا للمرحلة أكثر جدوى من الحرب، وكان ما أفصح عنه بمثابة رسالة إلى نور الدين، لتحويل أنظاره من مصر، فما كاد يخلد إلى ابنه، حتى كان له موقف آخر، مسرا له - حسب رواية ابن الأثير - بأن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم الوجود إليه، وحينئذ لا نقوى به، وأما الآن اذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والافتداز تعمل عملها، والله لو أراد نور الدين قصبه من قصب السكر، لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل⁽⁵⁹⁾.

ويعلق أبو المحاسن على ذلك بقوله : كان هذا من أصوب الآراء وأحسنها⁽⁶⁰⁾ وهو ما وضح له صلاح الدين، مقتنعا بأن الوقت هو سلاحه في تلك المعركة، تاركا الحرب ورقة أخيرة في الصراع مع نور الدين، وحينذاك انصرف إلى الجبهة الداخلية فقام باصلاحات كان لها تأثيرها في تحسين الوضع الاقتصادي ونشر الرخاء في البلاد، كما عمل على تقوية الجيش وتعزيز قدرته القتالية⁽⁶¹⁾.

ولعل نور الدين من جانبه أدرك مستوى القوة التي تمتع بها خصمه الأيوبي، ضابطا في حسم العلاقة معه، أخذا به حينذاك جبهة المشرق، حيث قام باحتلال عدة حصون في آسية الصغرى، تابعة لعز الدين قلج ارسلان مخططا للقضاء على مملكته⁽⁶²⁾ ومن ثم راسل الخليفة، طالبا تقليده البلاد التي في يده، ومنحه أرضا في العراق⁽⁶³⁾ فيما يبدو بأنها محاولة لاتخاذ محل السلاجقة في عاصمته، وتوفير فرص أفضل للقضاء على خصمه.

علما أن الوقت الذي دعا نجم الدين ابنه لخوض معركته، سرعان ما تحالف مع الأيوبيين، ولم يمر سوى عام على تلك الحادثة، حتى توفي نور الدين (569 هـ)⁽⁶⁴⁾، قبل الشروع في تنفيذ خطته، بازاحة الدور السلجوقي في عاصمة الخلافة، والعودة من هذا الموقع إلى ضرب النفوذ الأيوبي في مصر، وبذلك يكون الوقت وعلى مدى قصير، أفضل الخلفاء لصلاح الدين

(58) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 372.

(59) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 373.

(60) النجوم الزاهرة، ج 11، ص 23.

(61) المكان نفسه.

(62) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 391.

(63) المصدر نفسه، ج 11، ص 395.

(64) المصدر نفسه، ج 11، ص 302.

الذي كان الحظ دائما إلى جانبه، بدءا من وفاة عمه شيركوه، إلى وفاة الخليفة الفاطمي الذي سهّل له السيطرة التامة على مصر، وانتهاء الخصم الكبير نور الدين، ممهدا له التوسع نحو الشام، وإقامة دولة ولدت في غمرة هذه المصادفات، ولم يكن لصلاح الدين سوى دور المراقب المتربص بالفرص فيها.

كان على صلاح الدين أن يبادر الى التحرك نحو الشام، مستغلا الانقسام في البيت الزنكي بعد نور الدين، ولكن حالت دون ذلك مؤامرة قامت ضده في مصر، كان وراءها أنصار الخلافة الفاطمية، كما استهدفت شواطئ الاسكندرية حملة قام بها النورمان في الوقت نفسه، ويربط عاشور بين هذه المؤامرة، ومجيء النورمان، ربما بتنسيق مع ملك القدس الذي أخذ بحايي صلاح الدين⁽⁶⁵⁾ ممهدا بدوره للانقضاض على مصر، بعد زج الأخير في مواجهة متشعبة مع أعدائه، ولكن هذه الخطة لا تبدو مرتبة على هذا القدر عند ابن الأثير⁽⁶⁶⁾ الذي يجعل المؤامرة (الشيوعية) سابقة على وفاة نور الدين، وكذلك محاولة الملك الصليبي التودّد إلى صلاح الدين، وهي مواجهة في الأساس ضد العدد المشترك (نور الدين) بهدف ارباكه والضغط عليه.

تصدت حامية الاسكندرية للنورمان وأرغمهم على الانسحاب⁽⁶⁷⁾، كما تمّ احباط المؤامرة (الفاطمية)، فأطمأن صلاح الدين إلى الجبهة الداخلية وبدا مستعدا لفتح الجبهة الصليبية، وكانت الفرصة مرة أخرى بانتظاره، حين حاصر الصليبيون بانياس، ولجأ القائد الذي أرسله صاحب دمشق (الملك الصالح) إلى (ملاطفتهم) كما يقول ابن الأثير مهديا اياهم بالتحالف مع صاحب الموصل⁽⁶⁸⁾ واذ يكشف هذا الموقف عن الشرخ الذي كانت تعانيه الجبهة الاسلامية في المشرق، وجد صلاح الدين - وفقا لرأي المؤرخ عاشور - في ذلك سندا قويا للتدخل بحجة حماية وحدة المسلمين⁽⁶⁹⁾ وهو ما يتفق مع قول ابن الأثير، عن استنكار صلاح الدين لموقف الصالح وأمرائه، يفتّح ما فعلوه، ويبدل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام لئيمتلك البلاد⁽⁷⁰⁾.

وفي الواقع كان الصليبيون وصلاح الدين، ممن أفاد من غياب نور الدين الذي ما انفك يولي الأهمية القصوى لتحرير مدن وثغور الشام، دون التخلي عن عزمه على استعادة مصر المحطة الثانية في مشروعه الاحيائي للوحدة الاسلامية، ولذلك تتاح حرية الحركة للصليبيين بعد وفاته، وعودة صراع المدن الذي كان طابع المرحلة السلجوقية، إلى التفجّر، مع الفارق أن

(65) الكامل، ج 11، ص 399.

(66) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 403.

(67) المصدر نفسه، ج 11، ص 408.

(68) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص 33.

(69) ابن الأثير، ج 11، ص 408.

(70) المصدر نفسه، ج 11، ص 408.

الموصل أخذت دور حلب في العداء لدمشق⁽⁷¹⁾ نتيجة للانقسام في الأسرة الزنكية في ذلك الوقت وتهديد صاحب الأولى، سيف الدين غازي، لابن أخيه (الملك الصالح) صاحب الأخيرة التي كانت بدورها تفتقد إلى الوحدة، حيث أصبحت السلطة الفعلية فيها موزعة بين الأفراد الشاميين وذلك على حساب الأتابك (الصغير) الذي وجد نفسه، بين خطرين كلاهما يستهدف نفوذه ويطمع فيه، وهما : الموصل ومصر، مما حدا بالامراء إزاء ذلك، إلى التحالف مع الصليبيين والتودّد لهم⁽⁷²⁾.

أما بالنسبة للمستفيد الآخر، وهو صلاح الدين، فقد رأى في تلك الحالة فرصة جديدة ثانية صاغرة، ولديه ما يسوغ انتهازها للتحرك إلى الشام تحت ستار الجهاد ضد الصليبيين، وفقاً لما ألمح إليه ابن الأثير في قوله السابق ولعل السلطان الأيوبي الذي أقام حكمه في مصر باسم نور الدين وتحت مظلمته، لم يتردد عن تقديم نفسه كـ (وريث) له في الشام، بما يملكه من كفاءة ربما لا تحمل مضمون شخصية السلف، ولكنها تنطوي على كثير من صفاتها القيادية دون أن يتمتع بالقليل منها الملك الصالح الذي وصفه أبو المحاسن بأنه (صبي لا يستقل بالامر ولا ينهض بأعباء الملك)⁽⁷³⁾، أو الأمراء المتعثرون في بداية الطريق، فبدأ صلاح الدين من هذا المنظور، رجل المرحلة القادر دون الآخرين على تحقيق مشروع سلطة وتحويل آماله في الوحدة الإسلامية أو الكثير منها إلى حقيقة واقعة.

ولعل صلاح الدين في سرّه تعجب حينذاك كيف تنهيا له الفرص وينقاد له عنانها بمثل تلك السهولة فيصبح مجيئه إلى الشام مطلباً شعبياً ورغبة لبعض القادة فيها للخروج من حالة الانقسام وما يتبعها من تهديد صليبي، هذا ما رواه ابن الأثير عن مراسلة أهل دمشق لصلاح الدين، واستدعائه (ليملكوه عليهم) وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم⁽⁷⁴⁾، كما توقّف عنده أبو المحاسن قائلاً (اختلفت الأحوال بالشام، وكان شمس الدين بن المقدم، صلاح الدين ... فتجهز في جيش كثيف ... وقصد دمشق مظهرًا انه يتولى مصالح الملك الصالح)⁽⁷⁵⁾.

كان ذلك في ربيع الآخر من سنة سبعين وخمسائة للهجرة، حين نزل صلاح الدين في بصرى وكان صاحبها ممن كتبوا إليه⁽⁷⁶⁾ ومضى منها إلى دمشق التي استسلمت له، والتف الناس فيها حوله، ثم غادرها نحو الشمال فاستولى على حمص، وحماه، وحاصر حلب ولكنه عاد عنها بعد اتصال صاحبها بأمير طرابلس الصليبي (ريموند الثالث) الذي قام بهجوم على

(71) سعيد عاشور، مصر والشام، في عهد الأيوبيين، ص 30-32.

(72) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 408.

(73) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 24.

(74) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 416.

(75) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 24.

(76) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 416.

حمص فانكفاً صلاح الدين لمحاربته، بينما رحل الصليبيون قبل اقترابه من معسكرهم⁽⁷⁷⁾ ولم يجد التحالف المصطنع بين الزنكيين للدفاع عن حلب في الوقوف أمام صلاح الدين، الذي استأنف الهجوم على المدينة، وأوقع بالمدافعين هزيمة قاسية⁽⁷⁸⁾.

وبسقوط حلب تهافت المقاومة الزنكية في الشام التي أسلمت قيادتها إلى صلاح الدين، فتعزز نفوذه بعد ضمها إلى مصر وبات سلطان المسلمين القوي، ورجل المرحلة، المعقودة عليه الآمال بتحرير البلاد من الاحتلال الصليبي جرى ذلك كله بمعزل عن الخلافة العباسية فلم يكن من خيار أمامها سوى الرضوخ للنتائج التي يرسمها المنتصر، سواء من الأسرة الزنكية أو الأسرة الأيوبية، طالما أن كلاهما ينخرط في الدور الذي فقدت شروطه منذ وقت طويل وإذا كانت العلاقة غامضة بين الخلافة ونور الدين، سوى ما ألمح إليه ابن الأثير، من (الخلفة) التي بعث بها الخليفة إليه بعد إزالة الخلافة الفاطمية⁽⁷⁹⁾، فإنها كانت أشد غموضاً مع صلاح الدين الذي يتجاهل الخلافة، من غير أن يكون للأخيرة رأي في حركته أو يكون بدوره معينا بموقفها منه أو من (دولته) التي اكتسبت شرعيتها بالنسبة لبغداد، بناء على إسقاط خلافة الفاطميين أكثر مما استحققتها على مقاومة الاحتلال الصليبي.

ولم تكن دولة صلاح الدين هي الأولى في إطار الخلافة العباسية فقد سبقتها دولة السلاجقة التي اتسع مداها على مساحة كبيرة في هذا الإطار، ولكن الأولى تميزت بقيامها في قلب الأحداث، وليست على أطرافها شأن الثانية، كما تميزت - وإن لم تنطو على مشروع سياسي أو فكري واضح - بنشوتها على انقراض مشروع، كان الأول في طرح نفسه بديلاً في العمق لخلافة العباسيين أعني به الخلافة الفاطمية.

وإذا كانت السلطة بنظر بعض المؤرخين هي مشروع (صلاح الدين) فإنه، ومن دون التوقف عن حوافره الخاصة وصدقية منطلقاته بالمقارنة مع سلفه نور الدين كان رائد الوحدة السياسية الفعلية، بين الشام ومصر، تلك التي فشل في تحقيقها الطولونيون والأخشيديون، كما حالت عوائق دون استكمال الفاطميين لها، فضلاً عن نور الدين، وهو صانعها الحقيقي، بعد أن خانه الوقت في سد الثغرة الأخيرة فيها، وبناء على هذه الوحدة أصبح صلاح الدين أمام أولوية أساسية، وهي الجهاد ضد الصليبيين وفتح باب الحرب على نطاق واسع معهم.

وكان صلاح الدين إضافة إلى بعد نظره في السياسة وقدرته الفائقة على المناورة، قائداً عسكرياً ينطوي على موهبة فذة وتجربة غنية، فقد أدرك أن ساحة الصراع مع الصليبيين ليست محصورة بالشام فقط، وإنما كان عليه أن يكون على يقظة إزاء اطماعهم في مصر والتي ما انفكت هدفاً حيوياً لهم لحماية مواقعهم في الشام، ولذلك اهتم بتحسين الثغور منها، وإقامة

(77) المصدر نفسه، ج 11، ص 419.

(78) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 421، 422، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 25-26.

(79) الكامل في التاريخ، ج 11، ص 437.

الأبراج وتعزيز الاسطول الحربي، للدفاع عنها ضد الاغارات الصليبية⁽⁸⁰⁾ ولعل حملته في تلك الاثناء إلى الزها (573 هـ) بعد الهجوم على عسقلان، تدرج في هذه السياسة بقطع الطريق على الصليبيين في محاولتهم التقدم نحو مصر، وكانت الهزيمة التي تعرض لها صلاح الدين في الرملة⁽⁸¹⁾، تجربة قاسية في مستهل عهده، في وقت كان الصليبيون قد تغلبوا على انقساماتهم التي عانوها بعد وفاة بلدوين الرابع⁽⁸²⁾ فحاصروا حماه مرتين، وتوغلوا في نواحي حمص، وأغاروا على أعمال دمشق، وحصون أخرى في الشام⁽⁸³⁾.

وكان ما شجع الصليبيون على سياستهم الهجومية، انصراف صلاح الدين الى تحصين مصر وابتعاده عن الشام، ثم انشغال قواته فيها (الصراع ضد فلج ارسلان، مما دفع السلطان الأيوبي إلى عقد هدنة مع الصليبيين للتفرغ إلى قتاله⁽⁸⁴⁾ على ان هذه الهدنة لم تدم طويلا فقد أعلن صلاح الدين الحرب عليهم في العام التالي، وهاجم مواقع عديدة لهم متوجا عملياته حينذاك بحصار طبرية (583 هـ)، ذلك الذي اعتبره الصليبيون تهديدا لعاصمتهم القدس، وجرّ إلى معركة حطين الشهيرة وكانت خطة السلطان، استدراج اعدائه إلى الحرب، وفرض المعركة عليهم، فتقدموا مرتبكين نحو طبرية لدفع الحصار عنها وأقاموا معسكرهم على سفح الهضبة الغربية منها، فاستدار حولهم جنوده، وانقضوا عليهم، واقعين بهم إلى سهل حطين، حيث دارت معركة طاحنة، انتهت بهزيمة الصليبيين ووقوع ملكهم في الأسر⁽⁸⁵⁾.

أحدثت معركة حطين، وهي من دون شك احدى أبرز المعارك في التاريخ الاسلامي، بل الأكثر أهمية بعد معارك الفتوح الكبرى - تحولا في ميزان القوى لمصلحة المسلمين في بلاد الشام، وبدا حينذاك من عبقرية السلطان الأيوبي العسكرية، انه لم يشغل نفسه باستعادة القدس التي كانت شبه ساقطة، خصوصا بعد الاستيلاء على طبرية، وبعدها على عكا، أمنع الحصون الصليبية، ومتابعة الزحف حتى الساحل الشامي واخضاع عدد من القلاع وفيما كان محاصرا مدينة صور، ووصلته أخبار عن تحصين القدس، وكان قد عرض عليها الأمان مقابل الاذعان، فاضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى فلسطين عازما على اخضاعها بالقوة ولكن حامية المدينة رأت عدم جدوى من المقاومة، فسارعت إلى الرضوخ، وفتحت أبوابها أمام القائد المظفر، ومفاوضته على دخولها مقابل ضريبة، على كل شخص أن يؤديها خلال أربعين يوما، أو يصبح مملوكا للمسلمين⁽⁸⁶⁾.

(80) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص 261-265، المقرئزي السلوك، ج 1، ص 71-74.

(81) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 442-443.

(82) Grousset, Hist. des Croisades, II, p. 116.

(83) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 444، 445، 448، 450، 452، 453.

(84) المصدر نفسه، ج 11، ص 458، 464.

(85) المصدر نفسه، ج 11، ص 532.

(86) ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 534، 538، 549. النجوم الزاهرة، ج 6، ص 32.

والواقع أن معركة حطين ضعفت نفوذ الصليبيين في الشام، ووجهت ضربة عنيفة لمشروعهم الذي أخذ في الانكفاء والانحسار، ولم تجد التعبئة القصوى التي دعت إليها البابوية، وأدت إلى انصواء ثلاثة من ملوك أوروبا الكبار تحت لواء ما سمي بالحملة الصليبية الثالثة (1191/587)، في تغيير الصورة التي آلت إليها الشام بعد حطين فقد كانت لهؤلاء الملوك هواجسهم السياسية المختلفة وبالتالي غير المتطابقة مع الهاجس البابوي، فضلا عن مصالح الامارات الصليبية في المشرق المنطوية على خلافات حادة، مما أسهم في تعقيد الموقف وركود حماسة الملوك الذين توقعوا معركة سهلة في مهمتهم لاستعادة بيت المقدس، فكان عليهم أمام صلابة الجبهة الاسلامية، واضطرار بعضهم للعودة إلى بلادهم، ايثار السلم على الحرب والافتناع بثمان لا يوازي القليل من الآمال التي راودتهم قبل الوصول إلى الشام فعلى الرغم من خسارة المسلمين لعكا التي كانت أبرز منجزات الحملة الثالثة، وتخليهم عن بعض المدن الساحلية (من صور إلى أرسوف)⁽⁸⁷⁾، فإن القدس، وهي الهدف الرئيسي للحملة، ظلت في أيدي المسلمين، وحافظوا عليها نحو أربعين عاما حين استعادها الصليبيون في عهد الملك الكامل (626 هـ)⁽⁸⁸⁾.

على أن ثمن القدس لم يكن يوازي برأي بعض المؤرخين، ما تخلى عنه السلطان الأيوبي، الذي أدين لتفريطه بمنجزات حطين، وقد يكون من الصعب جدا الخوض في مناقشة تفويمية لهذه المسألة، إلا أن قراءة الحدث في النص، مختلفة من دون شك عن قراءته على الأرض، وما تختزنه اللحظة وقتها من أسرار ليست كلها بالضرورة في جعبة المؤرخ، وإن كان معاصرا لها أو مراقبا عن كثب ... والحملة الثالثة التي كانت في حجمها وعدتها، بمستوى الصدى الذي أحدثته معركة حطين في الغرب، ربما تهيب صلاح الدين في مواجهتها، بنفس الجرأة التي خاض بها المعركة السابقة، فتعاطى معها بخطة واقعية لم تخل نتائجها من أهمية على صعيد الجبهة الاسلامية التي ظلت متماسكة في ذلك الوقت.

والواقع أن العلاقة مع الصليبيين لم تكن خاضعة في الشام لمعيار مجدّد فقد تداخل هؤلاء مع المسلمين، دون أن تكون هذه العلاقة دائما عدائية بين الطرفين، ولا يصح بالتالي اسقاط حالتها على حالة أخرى في زمن آخر، وقد سبقت العهد الزنكي حقبة أو أكثر، كان طابعها أقرب إلى المهادنة بصورة عامة نتيجة للانقسام الذي ساد معظم الأحيان، الجبهتين الاسلامية والصليبية، مع الفارق أن الأخيرة كانت أكثر متانة وتعريزا، بسبب الدعم الأوروبي المتواصل، وبعد الوحدة التي حققها الزنكيون على مستوى الشام، تعدلت الموازين لمصلحة المسلمين وباتوا الطرف الأقوى الذي اتخذ وجهة الحرب، فيما غلب الانكفاء على أوضح الصليبيين وباعد بينهم الصراع على النفوذ إلى حدّ كان ينتصر أحدهم على الآخر بالمسلمين كما حدث

(87) حول شروط الصلح، انظر : ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 363. عماد الدين الكاتب، الفتح القسي، ص 342.

(88) ابن الأثير، ج 11، ص 482.

على سبيل المثال، حين راسل صاحب طرابلس، صلاح الدين، طالبا مساعدته ضد ملك القدس⁽⁸⁹⁾.

وخلاصة القول أن صلاح الدين، تهيأت له فرص لم تتح لغيره من القادة في التاريخ، فكان له من الذكاء ورهافة الحس السياسي، فضلا عن الحظ الذي وقف إلى جانبه دائما ما جعله يحقق النجاح الذي توخاه، ويبلغ الهدف الذي خاطر في الوصول إليه، وإن جاء ذلك على حساب الرجل القوي (نور الدين) ودور الأسرة الزنكية التي نشأ في ظلها السلطان الأيوبي، واقتبس نهجها الجديد، ومن ثم صادر منجزاتها الكبيرة، وهي تجربة في مطلق الأحوال جديرة بالاهتمام حقق خلالها صلاح الدين، انطلاقا من هذا التراث، ما كان يراود سلفه الزنكي من طموح إلى تأسيس الدولة البديلة، ولكن في إطار الخلافة العباسية، وإذا كان المشروع الزنكي في انطوائه على قضية عنوانها الأحياء الاسلامي على قاعدة الجهاد، فإن الطريق إلى الأخيرة مرّ عبر السلطة في المشروع الأيوبي ولعل في هذه المفارقة تكمن نقطة الضعف الأساسية في دولة صلاح الدين، التي تمكنت من الخروج لأول مرة على نسق الاقطاع أو الاقتطاع السائد حتى ذلك الوقت، فكانت الدولة الأولى التي تقوم على أساس وحدة كاملة بين الشام ومصر، دون أن تجد نفسها ملزمة بموافقة الخلافة، أو مأخوذة بهجوم الجبهة الداخلية، ولكن هذه الدولة في النهاية، لم تخرج كليا من هذا النسق، وظلّت مجرد نموذج أكثر تطورا فقط عن الدولة - الأسرة التي تكررّت في العهود السابقة، وهي دول ارتبطت بشخصيات مؤسسيها، فإن غابت الأخيرة، أضحت الدولة إلى زوال، أو سارت إليه بعد حين.

(89) ابن الأثير، ج 11، ص 526-527.